

الرَّاحِلُ وَالْمَبْقِيَّةُ

[أتركهم لدنياهم وأختار الله ،
ورسوله]

« علي »

obeikandi.com

ضاعت الفُرص من نفسها ، وما ضاعت من عَلَى . .
 ضاعت من الدولة المسلمة الراشدة التي كان الإمام يريد أن يعيدها
 إلى جادّتها ، ويمضى بها على صراطها الأول القويم .
 ضاعت من مقادير الإسلام التي كادت تصبح على موعد مع خليفة
 آخر من طراز « عمر » في صرامته ، وعدله . . في استقامته وورعه . .
 في ترفعه ، وتواضعه ، وزهده . .
 والخليفة المتقشف الذي تُعجى إليه الأموال حالاً طيبة من أقطار
 الأرض ، ثم هو يلبس قميصاً بثلاثة دراهم ! !
 الخطيبُ الذي تهتر الدنيا لكلماته ، وهي تخرج من وراء شفّيته
 ناضرة قاهرة ! !
 الفقيهُ العالم الذي تتفجر الحكمة من نفسه ، وعقله . ويجرى الحق
 على لسانه وقلبه ! !
 العابدُ، الورعُ، التقىُ ، الذي تفوّق على إغراء الدنيا ، وأطماع البشر ! !

تلميذُ «الرسول» الأوَّلُ ، والأُمثُلُ ! !

ريب الوحي ، وسابق المسلمين ! !

كل هذا في طريقه الآن إلى الرحيل . . ليحتلَّ مكانه مُلك عَضُوض .

يقوم إِيوانه وعَرْشه في الشام ، حيث ترتفع رايات الزَّهو والأَنانية . .

وحيث تدق طبول المجد الفارغ والطموح المتألَّى . !

* * *

الآن تقترب الأمور من نهاياتها . .

ويقف «البطل» بين فتنين عارمتين . .

أولاهما : في الشام تصيح : (يا لثارات عثمان) ! !

وثانيتهما : في العراق تصيح : (لا حُكْمَ إِلَّا لله) ! !

ولئن كانت الأوَّلُ ، أعنى وأوسع ، فإن الثانية أَمْضُ وأوجع .

ذلك أن ذويها ومشعلِها الذين كانوا بالأمس لا غير ، أتباعه وجنده . . وهم

الذين أصروا أوأصرَّ أكثرهم على قبول التحكيم حين كان يحذرهم منه

ويدعوهم إلى رفضه .

وهم الذين أصروا ، أوأصرَّ أكثرهم على اختيار «أبي موسى الأشعري»

حين كان هو يدعوهم في إلحاح إلى اختيار «عبد الله بن عباس» لأنه

القادر على قُلِّ دهاء «عمر» ودَحْض مناوراته . .

هم أولئك بالأمس . . هؤلاء الذين يحملون السلاح اليوم ليحكموا

به وفق هواهم ، وهم الذين ينشرون الذعر والرعب والفرع في أفئدة

الآمنين ، وهم - أخيراً - الذين يضطرونه ليحمل السلاح في وجوههم . . !

لقد حاول أن يصابرهم ، ويحملهم بمنطقه على الرُّجْمَى . ولكن

الفتنة والضلال كانا قد أحكما الخناق على عقولهم وألباهم . .
ولقد فقد الإمام كل أمل في هدايتهم حين بلغه نبأ مقتل عبد الله
ابن خَبَّاب وزوجه ، والطريقة التي قتلوهما بها . .
إن « عبد الله » ابن صحابي جليل . . كان إسلامه ، وكانت حياته
روعة وبهاء . . هو - خَبَّاب بن الأَرْتِ " "
ولقد لقيه « الخوارج » هو وزوجته في طريق سفرهما ، فاعتقلوهما
وسألوا « عبد الله » أن يحدثهم ببعض ما سمعه من أبيه من أحاديث رسول
الله فقال لهم :

[سمعت أبي يقول : سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون
فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ،
والقائم خير من الماشي ، والماشي خير
من الساعي] .

وسألوه عن « الإمام علي » فقال : فيه خيراً ، فاقتادوه وزوجته .
والآن ، لننظر هذه المفارقة المضحكة والمفجعة . .
فبينما هم ماضون بهما ، سقطت ثمرة من نخلة ، فتلقاها أحد الخوارج
بفمه . وقبل أن يمضغها صاح به زميل له : كيف تستحلها بغير إذن من
صاحب النخلة ، وقبل أن تدفع ثمنها ؟ فآلقاها من فمه وراح يندم
ويستغفر . . !

وبعد خطوات في سيرهما - تقدموا من « عبد الله بن خَبَّاب » فذبحوه . !

(١) راجع « خَبَّاب بن الأَرْتِ » في « رجال حول الرسول » .

ثم التفتوا بوحشيتهم صوب زوجته ، فصاحت من الفزع : (إني حُبْلَى ، فاتقوا الله فيَّ) .

ولكنهم ذبحوها هي الأخرى ، وبقروا بطنها عن جنيها . . ؟
أولئك من الذين كانوا يقاتلون مع الإمام بالأمس . . قد علم الله ما في قلوبهم : فطهره من صُحبتهم تطهيراً . . !
لم يكد مقتل « عبد الله بن خَبَّاب » يبلغ مسامع الإمام حتى تراءى أمامه مصير الأبرياء لو تُرك هؤلاء الهائمون المتوحشون يعيشون في أرض الناس فساداً ، فلوى زمام جيشه عن الشام إلى النهروان ، حيث لقي الخوارج في معركة فاصلة أباد فيها جَمْعهم ، وشتت شملهم ، وطوّح رؤوس قادتهم وزعمائهم .

* * *

أفما آن له أن يستريح . . ؟

ألا ينفض يديه من ذلك الظلام ، ويخرج من تلك المتاهات إلى حيث يعبد الله بقلبه السليم ، وينفع المسلمين بعلمه العميم ؟
ربما كان ذلك بعض أمانيه . . ولكنها مسؤولياته وتبعاته . . ؟ مَنْ يحملها سواه . ! إنها فوق كاهله . . لن يضعها عنه سوى الموت . .
فأين هو ! ومتى يجيء ؟ !
إنه لِيَحْسُ أن قد آن أوانه . .

فإن أهل الكوفة الذين دعاهم إلى السير معه صَوَّب الشام للقاء معاوية ، فقد تقَاعَسُوا وراحوا يتسلَّلون الواحد بعد الآخر من معسكرهم

بِالنُّحَيْلَةِ . . حَتَّى تَلَقَّتْ الْإِمَامَ ذَاتَ صَبَاحٍ فَلَمْ يَجِدْ حَوْلَهُ مِنْهُمْ سِوَى أَلْفٍ لَا يَزِيدُونَ ! !

اتى دوره اذن . . فقيم البقاء ؟

لَقَدْ كَانَتْ حَيَاتُهُ فِي دَوْرِهَا الْأَخِيرِ هَذَا وَقَفًّا عَلَى قَضِيَّةٍ كَبْرَى . . أَنْ يُعِيدَ لِلْإِسْلَامِ حَقِيقَتَهُ ، وَلِلْمُسْلِمِينَ وَحْدَتَهُمْ ، وَلِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَمَاسُكَهَا ، وَشُرْعَتَهَا ، وَاسْتِقَامَتَهَا . .

أَجَلٌ . . كَانَتْ الْقَضِيَّةُ الَّتِي نَذَرَهَا حَيَاتُهُ هِيَ : أَنْ يَرُدَّ الْإِسْلَامُ إِلَى حَقِيقَتِهِ . . وَأَنْ يَرُدَّ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ . . !
وَلَمْ يَتْرِكْ سِلْمًا ، وَلَا حَرْبًا ، يَبْلُغَانِ بِهِ غَايَتَهُ الثَّبِيلَةَ هَذِهِ إِلَّا تَوَسَّلَ بِهِمَا فِي عَدَالَةٍ ، وَشَرَفٍ .

وَلَقَدْ كَانَتْ قَضِيَّتُهُ وَاضِحَةً مُحْيَاً ، مُشْرِقَةً الْجَبِينَ . . نَاصِعَةً الْحُجَّةَ ، طَاهِرَةً الضَّمِيرَ .

وَإِنْ عَظَمَتْهَا لِتَتَجَلَّى عِنْدَمَا جَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي وَقَفَ فِيهِ « مَعَاوِيَةُ » بِأَخْذِ الْبَيْعَةِ بِحَدِّ السِّيفِ لِابْنِهِ « يَزِيدَ » !
يَزِيدٌ . . ؟ ؟

نَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . . ! !
إِنَّهُ لَوْ كَانَ يَأْخُذُهَا لِوَاحِدٍ مِنْ صُلَحَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ وَفَضْلَانِهِمْ ، مَا جَازَ لَهُ حَمْلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا بِالرَّهْبَةِ وَالْقُوَّةِ . فَكَيْفَ وَهِيَ لـ « يَزِيدَ » يَزِيدَ .
وَكَيْفَ ؟ !

لَقَدْ كَشَفَ هَذَا الْعَمَلُ مِنْ مَعَاوِيَةَ عَنْ أَحَدٍ وَجْهِ الْقَضِيَّةِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي كَانَ الْإِمَامُ يِقَاتِلُ دُونَهَا .

هذا الوجه المتمثل في ألا تصير خلافة المسلمين إلى طلقاء بني أمية أبداً . . وأن تظل في الصالحين الأولين من المهاجرين والأنصار .
أجل . . يومئذ تكشف هذا الوجه من القضية الكبرى التي نذر البطل لها حياته ، فألقى ضوءه على وجوه القضية كلها . .

ولم يبق من المسلمين أحد ، إلا بَحَّ صوته ترحمًا على الإمام « على » . .
ووقف واحد من كبار الصحابة يومها يقول :

« ما أجدني آسى على شيء فاتني في

حياتي ، إلا على أني لم أقاتل مع

« علي » الفئة الباغية » . .

أجل . . قال ذلك والدموع تبلل لحيته ، الصحابي الجليل ،

الطيب ابنُ الطيب « عبد الله بن عمر » ! !

° ° °

وأحسَّ المسلمون في كل مكان . . وفي العراق خاصة أنهم ضالعون

في الإثم ، شركاء في الوزر ، يوم تخلَّوا عن « البطل » وتركوه وحده في

الفضاء الموحش بين الوحوش والذئاب ! !

وراحوا يبيكون ، ويُولُولُون . .

لقد أحسوا فجأةً بالفراغ القاتل الذي خلفه لهم غياب أبيهم الحنون ،

الطيب ، العادل ، الرحيم .

وراحوا يترحمون عليه من كل أفئدتهم الصاعدة الضاربة . .

أقول : يترحمون .

أجل . فقد نسيت أن أقول لكم : إنه مات . . قُتِلَ غيلة . . استشهد

البطل والخليفة والإمام . . وهو يقترب من باب مسجد الكوفة ، وقيل : بل وهو يصلي ، أو يتبهاً للصلاة - بعد أن عبر شوارعها يوقظ أهلها للصلاة الفجر . . ويناديهم بصوته الجليل :

[الصلاة ، أيها الناس ، الصلاة ،

يرحمكم الله]

اقرب منه في لجّة الظلام واحد من الخوارج اسمه - عبد الرحمن ابن ملجم - كان قد ائتمر مع اثنين آخرين ليتخلصوا من الامام بالعراق ، ومن « معاوية » بالشام . ومن « عمرو بن العاص » بمصر .

كان « الإمام » بلاً حرس . .

فكان اغتياله عملاً من أسير الأعمال .

لم تكن الجريمة تتطلب أى جلد ، أو قوة ، أو بطولة . .

كانت تتطلب - لا غير - ضميراً ميتاً ، وتفكيراً ضالاً ، وقلباً

أعمى ، وإرادة ممسوخة . . ! !

فلما وجدت هذه جميعاً ، في صورة آدمى ، وسلّحت بسيف مسموم .

وقيل لها : اطعنى هذا الهدى وهذا الجلال . . تمّ كل شيء في لحظات ! !

وحققت الأقدار للبطل أمنيته الأخيرة .

فقبل استشهاده بأيام ، نادى أهل الكوفة من كتاب كتبه ، ووقف

أحد أصحابه يتلو عليهم بعد صلاة الجمعة :

[. . . أما والله لو ددْتُ أن الله أخرجني

من بين أظهركم ، وقبضني إلى رحمته

من بينكم . .

« وَلَوْ دُتْ أَنِي لَمْ أَرْكُم وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ . .
 « فَقَدْ وَاللَّهِ مَلَأْتُمْ صَدْرِي غِيظًا ،
 وَجَرَّعْتُمُونِي الْأَمْرَيْنِ أَنْفَاسًا ،
 وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعَصِيانِ وَالْخِذْلَانِ ..
 حَتَّى قَالَتْ قَرِيشٌ : إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ
 رَجُلٌ شَجَاعٌ ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ
 بِالْحَرْبِ ، اللَّهُ أَبُوهُمْ ! ! هَلْ كَانَ
 فِيهِمْ رَجُلٌ أَشَدَّ لَهَا مِرَاسًا . وَأَطُولَ
 مَقَاسَاةً مِنِّي ؟ ؟
 « لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتَ الْعِشْرِينَ
 « وَهَذَا أَنْذَا الْيَوْمِ قَدْ عَدَوْتُ السِّتِينَ . .
 « وَلَكِنْ ، لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ [. . ! !

أَجَلْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ . .
 وَلَقَدْ سَارَعَ الْقَدَرُ إِلَى رَجَائِكَ ، فَأَخْرَجَكَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ،
 وَقَبِضَكَ إِلَى رَحْمَتِهِ تَقِيًّا . . نَقِيًّا . . بَارَأً .

وَلَقَدْ حَمَلَكَ إِلَى الرِّفِيقِ الْأَعْلَى ، زُورْقُكَ الْآمِينَ الْوَدِيعَ الَّذِي طَلَمَا
 قَهَرَتْ بِهِ أَمْوَاجُ الْفَتَنِ حَتَّى اجْتَرَتْهَا جَمِيعًا فِي سَلَامٍ . .
 زُورْقُكَ الَّذِي لَذْتُ بِهِ طَوَالَ حَيَاتِكَ ، وَكُنْتُ أَشَدَّ بِهِ التِّيَادَا وَأَوْثَقَ
 رَحْمًا ، كَلَمَّا ذَكَرْتَ الْحَوَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَ الرُّسُولِ وَبَيْنَكَ ذَاتَ يَوْمٍ
 بَعِيدٍ .

يوم سألك - يا أمير المؤمنين - قائلاً :

[يا على . .]

« كيف أنت إذا زهد الناس في
الآخرة ، ورغبوا في الدنيا ، وأكلوا
التراثَ أكلاً لما . . وأحبوا المال
حباً جماً . . واتخذوا دين الله دغلاً
ومالوا دُولاً . . » ؟

فأجبهه - يا أمير المؤمنين - قائلاً :

[إذن . أتركهم لدنياهم ، وأذرهم
وما اختاروا . . وأختار الله ،
ورسوله ، والدار الآخرة . . وأصبر
على ذلك حتى ألحق بكم] . . !

لقد اخترتَ - يا أبا الحسن - فأحسنْتَ الاختيار . .

واصْطَبَرْتَ - يا أبا الحسينَ - فأحسنْتَ الاصْطبار . .

ولحقتَ بمن تُحب من المرسلين ، والشهداء ، والأبرار !

* * *

لقى الإمام ربه - أخيراً - مصاباً بضربة سيف مسموم . . كما

لقيه من قبل عمر الفاروق ، مصاباً بضربة خنجر محموم ! !

وتأى عظمة البطل إلا أن يكون آخر مشهد في حياته جديراً بها أكثر

ما تكون الجدارة ، ودالا على حقيقته أصدق ما تكون الدلالة . . !

فإنه لم يكذب يلقى ضربة القدر في رأسه ، حتى حُمِلَ إلى داره . .

وإذ هو فى لحظات الكارثة هذه ، يأمر حامليه والحافين حوله أن يذهبوا إلى المسجد ؛ ليدركوا صلاة الفجر قبل أن تؤذَن بفوات . . هذه الصلاة التى كان يتبها لها حين حال الأغتيال الأثم بينه وبين بلوغها أو إتمامها . . وحين يفرغون من صلاتهم ، ويعودون إليه ، كما يعود فى نفس الوقت ، بعض الرجال ممسكين بالقاتل عبد الرحمن بن ملجم - يفتح الإمام عينيه ، فتقعان عليه ، فيهر رأسه فى أسى حين يعرفه ويقول : - أهو أنت . . ؟ لظالما أحسنتُ إليك . .

ويُلقي البطل العظيم على وجهه بنيه وأصحابه نظرة ، فيراها تتفجّر غيظاً ، وتضطرم نِعمة ، ويُحسُّ برد الموت يسرى فى أوصاله ، ويكاد يرى المصير الذى سيحيق بـ « ابن ملجم » . يكاد يرى الانتقام المروّع الذى سيثأرله به أولاده ، فيتقدم هو فى إصرار ليحمى قاتله من أية مجاوزة أو تخط لحدود القصاص المشروع .

وهكذا ناداهم إليه ، وخرجت الكلمات من فمه مبحوحة متقطعة لترسم فى « العظمة الإنسانية » التى أفاءها القرآن على « على » لوحة باهرة . قال لبنيه ولأهله :

[أَحْسِنُوا نَزْلَهُ . .

وَأَكْرَمُوا مَثْوَاهُ . .

« فَإِنْ أَعِشْ ، فَأَنَا أَوْلَى بِدَمِهِ قِصَاصاً
أَوْ عَفْواً . .

« وَإِنْ أُمْتُ ، فَأَلْحَقُوهُ بى ، أُنْصَحُهُ

عند رب العالمين . .

« ولا تَقْتُلُوا بِي سِوَاهُ . . »

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » . .

لِنَدْعُ هَذَا الْمَشْهَدَ بِغَيْرِ تَعْلِيْقٍ ، فَلْنَجِدْ كَلِمَاتٍ تَرْتَفِعُ إِلَى مَسْتَوَاهُ . ! !
وَلِنَنْتَقِلَ إِلَى مَشْهَدٍ آخَرَ ، أَوْ إِلَى وَجْهِ آخَرَ مِنْ مَشْهَدِ الْخَتَامِ فِي حَيَاةِ

الْإِمَامِ . . ! !

* * *

فَقِيَ لِحَظَاتٍ نَهَائِيَّةً ، زَارَهُ وَفَدَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَسَأَلُوهُ أَنْ يَسْتَخْلَفَ
عَلَيْهِمْ ابْنَهُ « الْحَسَنَ » مِنْ بَعْدِهِ ، فَأَبَى وَقَالَ :

[لَا أَمْرُكُمْ ، وَلَا أَنْهَاكُمْ . .

« أَنْتُمْ بِأُمُورِكُمْ أَبْصَرُ » . .

وَأَرَادُوا أَنْ يَحْمِلُوهُ عَلَى مَا يَرِيدُونَ ، فَوَضَعُوا أُنَامِلَهُمْ عَلَى الْوَتَرِ الَّذِي
يَعْرِفُونَ أَنَّهُ يَهْزُ « ابْنَ أَبِي طَالِبٍ » مِنْ أَعْمَاقِهِ ، وَقَالُوا لَهُ :

— وَمَاذَا تَقُولُ لِرَبِّكَ ، إِنْ لَقِيتَهُ دُونَ أَنْ تَسْتَخْلَفَ عَلَيْنَا . . ؟

فَأَجَابَهُمْ :

[أَقُولُ لَهُ : تَرَكْتُهُمْ دُونَ أَنْ أَسْتَخْلَفَ

عَلَيْهِمْ . كَمَا تَرَكْتُ رَسُولَكُمْ الْمُسْلِمِينَ

دُونَ أَنْ يَسْتَخْلَفَ عَلَيْهِمْ !

ثُمَّ دَعَا بَنِيهِ ، وَعَلَى رَأْسِهِم « الْحَسَنَ » رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .
وَرَأَحَ يُمْلِكُ عَلَيْهِ وَصِيَّتَهُ :

« . . أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ رَبِّكُمْ ،

وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تَفَرَّقُوا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

إِن صَلَاحَ ذَاتِ الْبَيْنِ . أَفْضَلُ

مِنَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ .

« اللَّهُ ، اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ، لَا يَسْبِقُنْكُمْ

إِلَى الْعَمَلِ سَابِقُ . .

« اللَّهُ ، اللَّهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ،

أَشْرَكَوْهُمْ فِي مَعَاشِكُمْ . .

« لَا تَخَافَنَّ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَّا تُمِ .

يَكْفِيكُمْ مِنْ أَرَادَكُمْ وَبَغَى عَلَيْكُمْ .

« لَا تَدْعُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ ،

وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ

حُسْنًا كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى .

« عَلَيْكُمْ بِالتَّوَّاصُلِ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرِ

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا

تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . .]

* * *

وقع الاعتداء على حياة الإمام فجر يوم الجمعة الثامن عشر من

رمضان عام أربعين من الهجرة ، وفاضت روحه الطاهرة المطهرة مع

غروب يوم السبت التاسع عشر من رمضان .

وهكذا ، آب المسافر إلى وطنه . . وعاد إلى منزله . !
 ورحل « ابن أبي طالب » عن الدنيا . . لكنّ حياته والأيام التي
 عاشها على الأرض تحولت إلى شمس أخذت مكانها العالى فى حياة
 البشرية وتاريخها ، وراحت تجذب إلى مدارها قيم الحق ، والبطولة ،
 والإيمان ، والخير والشرف .

وهكذا رحل الإمام ، وما رحل . .

وظعن ، وما ظعن . .

فهو الظّاعن الحاضر . .

وهو الراحل المقيم . .

لقد فتح لذكره ، ولذكراه أبواب الخلود حينما ترك لذوى الدنيا
 دنياهم ، واختار الله ورسوله ، والدار الآخرة . .

ولقد احتوشته العواصف ، والأعاصير ، لكى تُزيغه فى ظلامها عن
 الطريق . . أو تُفقدّه بعض رشده ، أو تشغله عن غاياته ومبادئه . . فما
 زاع عن الطريق . . ولا فقد الرُّشد . . ولا سُمّ صحبة مبادئه . . وحين
 أدركه الموت وجده عملاقاً يحمل رايته . . ! !

وهذا الطراز النادر ، من البشرية ، تمنحه المقادير الخلود ، فلا
 تسلمه للنسيان ولا للعدم ، لأنه يُشكل للإنسانية ضميرها ، ونهاها .
 وإن سيرة « ابن أبي طالب » لناهضة فى مجال خلودها العظيم ،
 تلقى على الجنس البشرى فى كل أزمانه وبُلدانه ، نبأ الولاء العجيب
 للحق .

ولاء الطفل ، وولاء الشاب ، وولاء الشيخ . .

ولاء المقاتل ، ولاء الناسك . .
 ولاء المواطن ، ولاء الحاكم . .
 ولاء ما تمجد بينه في شتى مراحل العمر ، وتباين الأوضاع مِنْ تَفَاوُت .
 ذلك أنه ولاء مطبوع ، لا ولاء مصنوع .
 ولاء الفطرة ، لا ولاء الاحتراف .
 ولاء اليقين ، لا ولاء المنفعة .

* * *

وإذا كان الولاء للحق يتمثل أَوَّل ما يتمثل في قَهْر الدنيا . والتفوق
 على إغرائها وفُتُونها ، فإن « ابن عم الرسول » وتلميذه العظيم ، قد بلغ
 في ذلك المدى ، وجاوز المستطاع !!
 ها هو ذا ، يخرج إلى سوق الكوفة ، وهو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ،
 حاملاً أحد أسيافه الأثيرة لديه ، الحبيبة إليه عارضاً إياه للبيع وقائلاً :
 [مَنْ يشتري سفي هذا ؟ فوالله لو
 كان معي ثمن إزار ما بعته] !!
 لماذا هذه الفاقة . وبيت المال يستقبل كل يوم من أقطار الإسلام
 مالاً غداً . . ومن حقه كأمر للمؤمنين أن يأخذ منه كفايته . . ؟ ؟
 لماذا يُصر على أن يطحن بنفسه دقيقه ؟ ويرقع مدرعته حتى لا يبقى
 فيها مكان لرقاع جديدة . . ؟ ؟ !
 لماذا لا يأكل الخبز إلا قديداً مخلوطاً بنخالته ؟ ويهرب من قصر
 الإمارة بالكوفة إلى كوخ من طين . . !!
 نقول لماذا . . ؟

لأن الولاء للحق ، والزَّهْوُ بالدنيا لا يجتمعان .
ولقد تعلَّم ذلك من قدوة سَلَفَت ، طالما كان يلهج بها ذاكراً ،
ومُذَكِّراً . .

تلك القدوة التي لم تَغِبْ عن خاطره لحظة من نهار والتي عبرَ عنها
فقال :

[في رسول الله صلى الله عليه وسلم
إِذْ قُبِضَتْ عنه أطرافها ، ووطئت
لغيره أكنافها . .

« وفي موسى كليم الله ، إِذْ يقول :
رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ،
ووالله ما سأله إلا خبزاً يأكله .

« وفي المسيح عيسى بن مريم ، الذي
كان يلبس الخشن . ويأكل الجشَب
دَابَّةَ رجلاه ، وخادمه يداه] . . ! !

تلك هي المنازل العُلى التي يُحَلَّقُ عندها البطل الزاهد الأَوَّاب وهو
لهذا لا يعدل شيئاً يَحْشِبُ الطعام وَخَشِنَ الثياب . ! !

لقد كانت هوائته الكبرى ، إهانة الدنيا ، وإذلال مغرباتها الهائلة بأن
يرفع في وجهها يداً لا تهتز ولا تختلج ، تقول لتلك المغريات : لا . . ! !
فلما ولى أمر المسلمين ، وصار لهم خليفة وأميراً ، تحوَّلت اهوائية إلى
واجب . . !

أجل - آتتد لم يعد نبذ الدنيا وإذلال سلطانها وإغرائها مجرد هوية

لبطولته ، أو رياضة لروحه . بل صارت واجباً تفرضه مسئوليات الحكم ،
وتبعات القدوة . .
وآنثذ سمعناه يقول :

[أقنع من نفسى بأن يُقال
أمير المؤمنين ، ثم لا أشارك المؤمنين فى
مكاره الزمان . . ؟ !

« والله لو شئت لكان لى من صفو
هذا العسل ، ولباب هذا البر ،
ومناعه هذه الثياب ولكن ، هيات
أن يغلبنى الهوى ، فأبيت مبطاناً
وحول بطون غرثى وأكباد حرى] . . !

» « «

هو إذن مقيم لم يرحل . .

يُعلم الناس فى كل جيل وعصر ، أن الولاء للحق أثمن تكاليف
الإنسان . .

ويعلم الحكام فى كل جيل وعصر ، أن الولاء للحق يعنى رفض
إغراء الدنيا . ورفض غرور السلطان . .
وهو مقيم لم يرحل . .

يجد عصرنا هذا فى نهجه وحكمه أستاذاً ومعلماً وهادياً .

فاليوم ، حيث تعبى الحضارة كل قواها لمحاربة الفقر ، وإرباء
الكفاية ، وتوزيع العدل ، نجد أمير المؤمنين علياً . . يدرك من قرابة

ألف وأربعمائة عام « بُؤس الفقر » و « وظيفة المال » إدراك الحاكم المسئول ،
لا إدراك الواعظ المتّمنى .

انظروا . . .

ها هو ذا « ناسِكٌ » لم يمنعه نُسْكُهُ ، وزهده عن أن يعرف ضراوة
الفقر وبؤسه وعداءه لتقدم الروح والضمير فيقول قولته الباهرة :

[لو كان الفقر رجلاً لقتلته] . ! !

وها هو ذا يبدأ الساعات الأولى من حكمه وخلافته بوقف تضخم
الثروات التي سببها التمييز في الأنصبة والعطاء بين الذين أسلموا قبل
الفتح . والذين أسلموا بعده . . فيلترم منهج التسوية في العطاء .

وفي حدود قدرة " بيت المال " يأخذ كل حاجته ولا يزيد . .

وإنه ليفهم المعارضين لمنهجه بكلمات قصار لكنها كبار . إذ يقول . .

[لو كان المال مالى ، لسوّيت بينهم ،

فكيف والمال مال الله ، وهؤلاء ،

عباده . . ؟]

إن « وظيفة المال » عنده ، تتمثل في سد حاجات الشعب فرداً
فرداً . .

وهو - أى المال - ليس « مثوبة » على دين ، ولا تكريماً لمركز ،
بل ولا ثمناً لجُهد . . .

إنه قيام بضرورات العيس . وسدُّ لحاجات الناس ، لا أكثر من
هذا ، ولا أقلّ

وهو بهذه المثابة ، لا يصلح قط أن يكون « حِكراً » ولا أن يكون

« دُولَة » بين أيدى قِلَّةٍ مُثْرِيَةٍ .

إنَّ « تحديد إقامة المال » في بضعٍ أبَدٍ ، أو بضعة بيوت ، هدرٌ لوظيفته وإلغاء لدوره الصحيح في فقه الإمام ، الذي هو فقه الإسلام . .
من أجل هذا قال كلمات راشدة صاغ بها مبدأ من أعظم مبادئ حكمه وحكومته .

[إن الله فرضَ في أموال الأغنياء

أقوات الفقراء . . .

« فما جاع فقير ، إلا بتخمة غنى » . .

من العسير أن نجد عبارة تحدثنا عن وظيفة المال ويجتمع فيها المنطق العلمى ، والألقى الإنساني ، على هذا النسق الفريد والرشيد !

[إن الله فرضَ في أموال الأغنياء

أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا

بتخمة غنى] .

ألا وإنَّ « الإمام » بهذا المبدأ ، لا ينفى عن المال نزوة الاحتكار فحسب . بل يبنى عنه كذلك نزوة السَّرَف في إنفاقه والجموح في طلب المناعم به .

فجوع الفقير ناشئ عن تخمة الغنى . .

والجوع والتخمة - كلاهما مظهر لخللٍ في وظيفة المال وعدالة التوزيع .

فحين تأخذ وظيفة المال دورها الصحيح في تغطية المعاش وسد الحاجات بغير سرف أو ترف . . فآنئذ لا توجد « التخمة » التي

تخلق الجوع ، ولا يوجد « الجوع » الذى يحقد على التهمة .
وعبارته الرشيدة هذه :

[إن الله فرض فى أموال الأغنياء
أقوات الفقراء] .

تعطينا دلائلها الرائعة حكماً فقهياً باهراً ، هو أن أموال الأغنياء
ليست حقاً خالصاً لهم ما دام فى مجتمعهم فقراء . . بل هى حق لهم
وللفقراء معاً . . هى حق للفقراء الذين خلّت منه أيديهم ، بقدر ما هى
حق للأغنياء الذين تمتلئ به أيديهم ! !

ولقد كان « الإمام » رضى الله عنه يضع مبدأه هذا كما يضع كل
مبادئه موضع التنفيذ السديد ، لا يصرفه عن ذلك تلك الفتن المجنونة
حوله ، ولا الحرب المتسعة ضده .

ترى هل كان لسياسته هذه دور فى تألب الأحقاد عليه وانفضاض
الذين كانوا أنصاره بالأمس من حوله ؟ !

هل لعبت مخاوف المسلمين الذين أثروا ثراءً كبيراً ، والذين كانوا
فى طريقهم إلى الثراء دوراً غير منظور فى محاربة الخليفة الذى رفع هذا
الشعار ، وهذا المبدأ :

[إن الله فرض فى أموال الأغنياء
أقوات الفقراء] ؟ .

* * *

على أية حال ، فقد رحل عن الدنيا - الشكل الخارجى - للبطل :
أما موضوعه الحى ومضمونه النقى ، فقد بقيا غذاء للحقيقة ورياً .

وسيطزل « الإمام » حياً في جميع القيم وفي كل الحقائق التي عاش
يناضل دونها ، ومات حاملاً رأيها .

سيظل حياً ومائلاً في فضائله وعظائمه التي صاغ منها حياة امتدت
إلى الثالثة والستين ، والتي أجاد وصفها ضرار بن ضمرة الكنانى .
فقال واصفاً الإمام :

« كان بعيد المدى ، شديد القوى . .

يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً . .

يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطلق
الحكمة من لسانه . .

يستوحش من الدنيا وزهرتها ،

ويأنس بالليل ووحشته . .

« كان غزير الدمعة ، طويل الفكرة ،

يقلب كفيه ويخاطب نفسه .

« يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن

الطعام ما جشْب . .

« وكان فينا كأحدنا - يحيننا إذا

سألناه ، وبيتدثنا إذا أتينا ، ويأتينا

إذا دعواناه .

« وكنا والله مع قُربه منا لا نكاد نكلمه

لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته .

« وكان إذا تبسم فعن مثل اللؤلؤ

المنظوم . . يعظم أهل الدين ،
ويقرب المساكين .

« لا يطمع القوى في باطله ، ولا ييأس
الضعيف من عدله .

« وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ،
وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت
نجومه وقد مثل في محرابه ، قابضاً
على لحيته ، يتململ تملل السليم
ويبكي بكاء الحزين .

« فكأنى أسمعه وهو يقول : يا دنيا ،
يا دنيا ، إلى تعرضت ، أم إلى
تشوّقت ؟ هيهات هيهات ، غرى
غيرى .

« قد أبنتك ثلاثاً ، لا رجعة فيها !
« فعمرك قصير . . وعيشك حقير . .

وخطرك كبير . .

« آه من قلة الزاد . .

« وبعد السفر . .

« ووحشة الطريق . . » !!

* * *

لقد كان حظ الإمام مع الناس عائراً . .

ولكن حظوظه مع نفسه فى طهرها وتقاها ، كانت رابية وواقية . .
 فبغير عونٍ من تأييد يبذله مؤيدون وأصدقاء . .
 وبغير جزعٍ أمام المؤامرات الضارية ، يثيرها فى وجهه أعداء ، تلو
 أعداء . . وقف « الإمام على » يبنى وحده - بإيمانه الفرد ، وبساعده
 الأشد ، حياةً سامقة تبقى على مرَّ الزمان « مناراً » لذوى الرشد والنهى . .

* * *

ولئن كان لم ينصفه الذين غلّوا فى حربته . .
 ولم ينصفه الذين غلّوا فى حبه . .
 فقد أنصفته عظمته الفريدة ، إذ فرضت على الأعداء جلاّكها . .
 وعلى الأصدقاء استغناءها . .
 وسارت على وجه الزمان طاهرة ، ناضرة ، ظافرة . .
 وتلكمُ هى العظمة حقاً . . !!

❧ كُتِبَ لِلْمُؤَلِّفِ ❧

- | | |
|---|---|
| <p>١٥ - في البدء كان الكلمة</p> <p>١٦ - كما يتحدث القرآن</p> <p>١٧ - وجاء أبو بكر</p> <p>١٨ - مع الضمير الإنساني</p> <p>في مسيره ومصيره</p> <p>١٩ - كما يتحدث الرسول</p> <p>٢٠ - أزمة الحرية في عالمنا</p> <p>٢١ - رجال حول الرسول</p> <p>٢٢ - في رحاب علي</p> <p>٢٣ - وداعاً . . عثمان</p> <p>٢٤ - أبناء الرسول في كربلاء</p> <p>٢٥ - معجزة الإسلام:</p> <p>عمر بن عبد العزيز</p> <p>٢٦ - عشرة أيام في حياة الرسول</p> <p>٢٧ - والموعود الله</p> | <p>١ - من هنا .. نبدأ</p> <p>٢ - مواطنون .. لا رعايا</p> <p>٣ - الديمقراطية ، أبداً</p> <p>٤ - الدين للشعب</p> <p>٥ - هذا .. أو الطوفان</p> <p>٦ - لكي لا تمحروا في البحر</p> <p>٧ - الله ، والحرية</p> <p>٨ - معاً على الطريق - محمد والمسيح</p> <p>٩ - إنه الإنسان</p> <p>١٠ - أفكار في القمة</p> <p>١١ - نحن البشر</p> <p>١٢ - إنسانيات محمد</p> <p>١٣ - الوصايا العشر</p> <p>١٤ - بين يدي عمر</p> |
|---|---|